# الطب عند قدماء المصريين

ألف هذا الكتاب الطبيب الإنسان بول غليونجى.

وأهداه إلىَّ فى مطلع حياتى الأدبية وكنت حديثة عهد بالتخرج من الجامعة وأسعدنى يومئذ وإلى اليوم، بالهدية وعهديها.. فمثل هذه اللفتات فى تلك السن الغضة كانت ترش الضوء على طريقى..

صف طويل من الأفذاذ أدباء وعلماء استقبلوا مولدى الأدبى فشرفت بهم وعاشوا فى داخلى وفى سطورى

كان الدكتور بول غليونجى يعتز بقدماء المصريين وبالحضارة المصرية.. حتى غلاف الكتاب اختاره بحب.. حين توجه بصورة الكاهن «ابير» من أواخر عهد الأسرة الرابعة وقد سماه العمال الذين كشفوا عنه «شيخ البلد» لشدة مشابهته لشيخ البلد فى قريتهم..

يقول الدكتور بول غليونجى (وهى تسمية موفقة لأنه يمثل روح مصر فى أول عهد الفراعنة تمثيلا يأخذ بالذهن.. (عبارة ناضرة وعميقة فى آن).. فهو يقف وقفة العزة والكرامة.. وهما صفتان تليقان بأول شعب خرج من ظلمات العصر الحجرى، وخطا بقدمه إلى امام ليدخل عصر الواقعية العملية التى تبدو جلية على وجهه الفياض بالحذق والرأفة.. وهما صفتان اتسم بهما فى الوقت نفسه مؤلف لفافة (ادوين سميث، الجراحية).

ويستهل الدكتور بول غليونجى كتابه بكلمة حكيمنا المصرى «بتاح حتب»

إنما الحق يدوم.. وتستطيع أن تقول عنه: هذا تراث أبى.

أقول صدقت ياأبى هذا تراثك وتراث أهلى من ألوف السنين.

ما أجمل قول الدكتور بول غليونجى فى استهلال الكتاب.. فى مقدمة المقدمة:

الحمد لله الذى أوجدنا فى هذه الأرض الخصبة التى أنجبت حضارة لم تفتأ تذهل العالم بما حققته.. وتثير إعجابه بروحها المتجددة.. هذه الروح التى سمحت لها بمسايرته فى كل ميدان، بالرغم من جميع المحن التى ألمت بها.

وقد وقف الدكتور بول غليونجى فى كتابه عند أهم لفائف البردى الطبية وهى ثمان:

وقد أطلق عليها أسماء:

كاهون- ادوين سميث- ايبرز- هرست- برلين- وبيتى- ولندن- وكارلزبرج.

ومن الطريف التعليقات الفرعونية على هذه البرديات والتى منحتها كما يقول الطبيب بول غليونجى، حياة عجيبة مثل هذه العبارة: «جربت هذا ووجدته مفيدا» أو هذا التعليق «هذا طيب»..

أما لغة اللفائف ففيها، كما يقول، كثير من البديع فى الوصف والتشبيه

١ - بردى كاهون: يرجع إلى عام ١٩٥٠ قبل الميلاد وهو أقدم أوراق البردى الطبية التى وصلت إلينا.. وتضم الصفحتان الأولى والثانية سبعة عشر تشخيصا فى أمراض النساء.. كما تحوى الصفحة الثالثة سبع عشرة علامة للتكهن فى فن الولادة.

٢ - بردى ادوين سميث: وهو يعتبر توأما لبردى ايبرز.. والاثنان اُكتشفا معا عند أحد بائعى الأثريات فى طيبه.. وقد أدى التشابه العجيب بينهما إلى نوع من النزاع بين سميث والهرأ ييرز عندما كان كل منهما يريد أن يشترى البردى..

والبرديان يحملان تاريخا واحدا هو ١٥٥٠ قبل الميلاد.. ولا يمكن الجزم بصحة نظرية بريستد القائلة بأن بردى سميث أكثر قدما.. وقد وصف بريستد هذه اللفافة بأنها أقدم كتاب للجراحة فى العالم وأنها أحدثت ضجة كبيرة فى العالم الطبى وتحتوى فاتحته على كتاب الجروح الذى يشمل ثمانية وأربعين تشخيصا.

أما ظهر المخطوط فقد دونت عليه كتابة فى الأمراض الباطنة.. وبه إشارة إلى مرهم محضر لإعادة الشباب إلى الشيوخ.. وإشارة أخرى تتعلق بأمراض المستقيم.

والحقيقة أن مخطوط أى بردية ادوين سميث يصف مشاهدات واقعية فى جراحة العظام والجراحة العامة. وهو مقسم تبعا لتقسيم الجسم، فيبدأ بالرأس ويهبط حتى العمود الفقرى. وعدد المشاهدات ثمانى وأربعون وتشمل الجمجمة والأنف والفك، وفقرات الرقبة، وفقرات الظهر، والأضلاع، والصور، والترقوة ، والكتف، واللوح، والصدر واليدين.

ويلاحظ أن طريقة العرض فى هذه البردى تتسم بالنظام والدقة يقول الدكتور بول غليونجى أن كل مشاهدة تبدأ بالعنوان التالى: «تعليمات بشأن..»

لا توزع على الناس كما توزع عليهم طائفة من السلع المفيدة الأخرى -يبدو أنه شاهد طوابير الجمعية- ولو قد وزعت الكلمات على الناس بأقساط معلومة، وأجبر كل إنسان على ألا يعدو نصيبه منها، فعندئذ قد يثق بأن الرجال والنساء الذين يستخدمون الكلمات مكتوبه ومنطوقه فى أعمالهم اليومية سيبحثون بعناية أكبر عن الكلمة الصحيحة التى تناسب الفكرة المراد نقلها. فمحاولة بلوغ «الدقة» فى استخدام الكلمات، تنتج كذلك دقة فى التفكير.

ويقول إن الرجل من عامة الناس ليكفيه فى حياته ٨٠٠ أو ١,٢٠٠ كلمة من بين آلاف الكلمات الموجودة فى اللغة الانجليزية مثلا.. إن شكسبير لم يستخدم إلا ١٥,٠٠٠ كلمة، ولم يستخدم «ملتون» إلا نحوا من ٨,٠٠٠ كلمة. فكلما قل عدد الكلمات التى يستخدمها شخص ما، كثر تكرار الكلمة الواحدة عنده، وهذا ينتهى بنا نحن الذين نصف أنفسنا بالذكاء، والذين ينشدون استخدام الكلمات الصحيحة فى مواضعها، ينتهى بنا إلى ما ينبغى أن نعلمه وهو: (اجعل حديثك موجزا واضحا).

ومن أمثلة هذا كتاب ونستون تشرشل (الحرب المجهولة) عن الحرب الروسية الألمانية فيما بين سنتى ١٨١٤، ١٩١٧ فقد بلغ فيه من دقة التعبير ووضوح العبارة، مبلغا تنتفى معه الحاجه إلى استعادة قراءة جملة أو صفحة لتتبين المعنى المقصود.

واذا كان الوضوح والدقة، لازما فى الكتابه فهو فى الحديث، ألزم وهنا يترك المتحدث أثرا فى نفس سامعه.

ويتناول استل هـ. ريز موضوع (الاختيار والحسم) فيحكى أن حمارا مات جوعا، لأنه لم يستطع أن يفضل واحدة من حزمتى دريس وضعتا أمامه ليختار بينهما.

وهنا يعلق: سواء أكانت هذه الرواية صادقة أم لم تكن، وسواء أكان صاحب الاختيار حمارا أم غير حمار، فإن قدرة من أهم قدرات الفرد، أن يعرف كيف يختار.. وبطبيعة الحال، فإن مجرد الاختيار لا يعنى شيئا ما لم يتبعه بقرار يضعه موضع التنفيذ.

بشرط أن يكون القرار مدروسا محسوبا ممحصا لا موضع فيه للثغرات، أو اغراءات تثنيه عن المضى قدما.

تروى الأساطير اليونانية لنا قصة «اتلانتا» التى كانت سريعة الحركة لدرجة أنه ما من شخص كان يستطيع أن يسبقها فى سباق على الأقدام. وقد رضيت أن تتزوج من أى شاب يستطيع أن يغلبها فى ذلك. أما من يخفق، فقد كان عليه أن يدفع حياته ثمنا لإخفاقه. وأخيرا تقدم لمنازلتها من يفوقها دهاء. وفى أثناء تقدمها السريع أمامه فى السباق رمى ببعض التفاحات الذهبية فى طريقها، فتوقفت لتلتقطها، وبذلك خسرت السباق.

والاختيار تحدده سياسة مرسومة أو فلسفة شخصية فاختيارنا أحد البدائل معناه أن نرفض بديلا آخر. فمثلا نجد «فاراداى» أحد عظماء الفيزيائيين، قد حقق عظمة فائقة فى بعض النواحى بتوفيره الطاقة المنصرفة فيما عداها.. إن تجاهل الاهتمامات الثانوية، كانت عاملا مهما فى نجاحه.. لقد كانت هذه هى الطريقة التى استطاع بها أن ينجز عمله العظيم: بناء نظرية كاملة فى الكهربية.

ربما كانت تضحيته كبيرة، لكنه كنتيجة لها أعطانا الحقائق الأساسية التى جعلت الهندسة الكهربية الحديثة ممكنه. لقد اخترع المحول الكهربى، والدينامو، ومن نظرياته الأخرى، أمكن عمل التليفون، والراديو، وكثير غيرهما من الاكتشافات، والاختراعات الهامة.

إن النمو الشخصى، ضرورة للحى.. ولكن النمو الشخصى لا يزدهر إلا فى جو من الحرية واحترام حقوق الإنسان.. إن الكثرة الغالبة من الناس اليوم لا يستغلون إلا جزءا ضئيلا من قدرتهم لأنهم مقيدون بالخوف والقصور الذاتى والحنق وبغير هذا من أمراض النفس.. والعصر.. وعلى من يريد «النمو» أن يحطم هذه القيود الواحد بعد الآخر.. هنا نجد شخصا جديدا ينبثق من فوضى الماضى.

ولكن رحلة النمو الشخصى تحتاج الى التزود بقيمة الدين الصحيح. يقول ملفن إفانز.

ثم يجىء الفحص ويبدء بالعبارة: «إذا فحصت رجلا....» ويتبعه التشخيص:

«قل فيما يخصه إنه يشكو...» ثم التوقيع وهو يعبر عن احتمالاته الثلاثة: الجيد.. والمشكوك فيه.. والميئوس منه.. بالعبارات التالية:

«سأعالجه» أو «سأكافحه» أو «مرض لن أعالجه».

وبعد ذلك يأتى العلاج وهو ينتهى ببعض التعليقات والتفسيرات وعددها سبعون..

يقول الدكتور غليونجى: هذا الجزء الأول من البردى- فضلا عما يتسم به من نظام فى العرض، يمتاز بالتبويب المنطقى المرتب.. وهذا يدل على أن تقاليد طويله وتفكيرا أصيلا قد سبقا كتابته.

وواقعية هذا البردى تتضح أيضا من دقة الملاحظة التى تتصف بها الحالات مثل وصف حدوث الشلل والتبول اللاإرادى على أثر إصابات العمود الفقرى، والإصابة بالصمم من جراء كسر فى عظمة الصدغ.

وهذه الدقة تميز كذلك وصف التحريكات العلاجية كطريقة وضع يدى الجراح على الفك المخلوع لرده.

ويتحدث الدكتور بول غليونجى فى هذا الكتاب عن «المدارس» الطبية الفرعونية فيقول

من المحقق أن نشأة أولى مدارس الطب فى مصر الفرعونية ترجع إلى عهد الأسرة الأولى.. وبعض هذه المدارس بلغ شأوا كبيرا فى ميدان الشهرة.. ومن بينها مدرسة فتحت فى سايس للمولدات اللائى كن يقمن بتدريس علم أمراض النساء للأطباء أنفسهم- هكذا بلغ شأو المرأة المصرية القديمة.. أقول إن مصر هى البلد الوحيد الذى وصلت فيه المرأة إلى منصب نقيبة الأطباء-.

أعود إلى الدكتور بول غليونجى الذى يضيف إلى مدارس مصر الفرعونية مدرسة هليوبوليس، ومدرسة امحوتيب بممفيس التى زادتها شهرة مكتبتها الزاخرة بالمؤلفات والتى كان يتردد عليها الأطباء حتى فى عهد جالينوس قبل الميلاد بقرنين. ويعتبر ليفيبر Lefebvre) أن تلك المدارس التى كانت تسمى بيوت الحياة كانت بمثابة حوانيت للنساخين يلتقى فيها هؤلاء وهم على جانب كبير من العلم بالعلماء، ويتحدثون فى العلم والفلسفة، مثلها مثل «المسيون» (Mouseion) الذى ازدهر فى الاسكندرية فيما بعد.

ويقول (وإلى الكهنة يرجع الفضل فى إدخال كثير من الوصفات الصحية بحجة الدين مثل حظر أكل الخنزير والبجع.. والصيام اربعين يوما كل عام- أزيد عشرة أيام مما نفعل فى رمضان فهل هى الأيام العشرة البيض- والصيام الفرعونى كان ينص فيه على تجنب العلاقات الجنسية.

وأوصى الكهنة بتعاطى شراب السنامكى مرة كل شهر، والاستحمام مرتين كل يوم..

كما أن الكهنة كانوا يتبعون قواعد خاصة يفرضونها على أنفسهم مثل إزالة ما ينمو على أجسامهم من شعر مرة كل ثلاثة أيام!!!

ومن جميل تقاليد الأطباء المصريين أن الطبيب كان يقتطع جزءا من أتعابه يخص به المعبد الذى تلقى فيه علومه الطبية وقد جمع بعضهم ثروات طائلة مثل الطبيب الذى ذكره جونكير والذى كان يملك ١٨٢ منزلا فى طيبة.

وأشهر الأطباء فى مصر الفرعونية هو ولاشك «امحوتيب» ومعنى ذلك الاسم «الذى أتى سالما». وقد عاش فى عهد الأسرة الثالثة أى قبل الميلاد بحوالى ثلاثين قرنا- أقول وهو مهندس هرم سقارة المدرج.. وهو نحات وهو رسام وهو كاتب اديب... إنه أول شخصية موسوعية فى العالم.

وقد قال سير ويليام أوزلر «أنه أول شخصية طبيب ظهرت من غيوم قديم الزمان».

وكان كبير وزراء زوسر فرعون الهرم المدرج بسقارة وكان معماريا فذا إذ أنه أول من استعمل الحجر فى البناء فى تاريخ الإنسانية وأول من تخيل ونفذ مجموعة بنائية ضخمة تظهر لكل عين فوق الهضبة الغربية.

وكانت ألقابه «كاتم سر» ملك مصر السفلى.. نبيل بالوراثة كاهن هليوبوليس السامى.. وناسخ كتاب الإله إلا أن أجمل لقب لايمحوتب وهو رئيس كهنة «عين شمس» هو أن أصبح رمزا لكلية طب جامعة القاهرة.

وكان النساخون قبل كتاباتهم يصبون الماء على تماثيله قائلين: ماء من قنينة كل كاتب لروحك «كا» يالايمحوتيب».

وانتحل الاغريق نسبته فقالوا أنه باسقولاب إله الطب وابن أبولو فى أساطيرهم..

ولكنها مصر الأم والوطن والمجد.

***

وعرفت مصر التخصص الدقيق يقول الدكتور بول غليونجى هذا متخصص فى الرمد الحبيبى وذاك متخصص فى مرض السيلان وثالث لا يعالج إلا الشرج ويطلق عليه اسم لا يخلو من البديع

هو «راعى الشرج» وقد تصف هذه التسمية الموكل إليه تركيب الحقن الشرجية.. بل إنهم أمعنوا فى تضييق ميادين تخصصهم حتى بزوا كما يقول الدكتور بول غليونجى فى ذلك بعض معاصرينا..

قال ديودوروس فى أسلوب حياة المصريين إنه يبدو مرتبا كأن طبيبا نظمه وفقا لقوانين الصحة لا مشرعا مبتكرا للقوانين.

وكان الإجهاض وتحديد النسل يعاقبان عقابا شديدا وعن الفراعنة أخذت الآشوريون والأحباش واليهود عادة الختان

وأهم ما كان يتناوله المصريون القدماء من الأطعمة الحاوية للمواد الزلالية كأنواع السمك وكانوا يأكلونها مشوية أو مسلوقة أو نيئة أو مجففة فى حرارة الشمس أو محفوظة فى الملح (الملوحة والفسيخ).

وكان الملح يباع على شكل قوالب كبيرة عثر على الكثير منها فى الآثار وقد أثبت التحليل أنها- حتى التى ترجع إلى الأسرة السادسة (٢٢٠٠ ق.م) وهى أقدم ما وجد- أقول إن التحليل قد أثبت نقاءها وخلوها تماما من الشوائب مما يدل على أن الملح فى عهد الفراعنة كان يستخرج من منابع مالحة وليس من البحر.

وكان الملح ذا رمز دينى كشأنه فى التوراة إلا أن هذا الرمز كان يرتبط عند المصريين ارتباطا أوثق بالنطرون الذى كثيرا ما كان يستعاض به عن الملح فى حفظ الأطعمة وكان معظمه يستخرج من وادى النطرون والجزء الأقل من الكاب بالقرب من أرمنت ومن نوكر اتيس فى الدلتا- وكان يسمى «نترى»- وهذه التسمية التى نستعمل مشتقاتها إلى اليوم «نترات» و «نتريك» تفسر الرمز الدينى إذ أن كلمة «نتر» معناها الطاهر أو الإله.. يضاف إلى ذلك أن كان يخلط دائما بالبخور فى طقوس التطهير.

واذا ما انتقلنا إلى داخل البيوت وجدنا أنها كانت تهويتها «بالملاقف» وترش بمحلول النطرون لقتل الحشرات وكانت مزودة بالمراحيض مما أثار دهشة هيرودوت فقال

إن المصريين يختلفون فى عاداتهم عن بقية الشعوب الأخرى فهم يتناولون طعامهم خارج مساكنهم- أقول دعوة إلى المشاركة فى الطعام لا يخفونه- بينما يقضون حاجتهم داخلها.

وقد اكتشف بورشاردت فى مدينة تل العمارنة أربعة أنواع من المراحيض.. إضافة ورهافه من اخناتون.

وكانت جدران الحمامات مغطاة بالحجر أو بالخزف لصيانته. وهذه الحمامات بلغت ذروة الترف فى عهد رمسيس الثالث الذى بنى معبدا فى مدينة هابو ثم هدمه وشيد على أنقاضه معبدا آخر مزودا بعدد من الحمامات.

وقد أظهرت حفريات بورشارت فى معبد «ساحورع» ثانى فراعنة الأسرة الخامسة (٢٧٠٠ ق. م) فى سقارة أحواضا من الحجر المبطن بالمعدن!! فى كل حجرة وفى كل ممر، منه، وفى أسفل كل حوض فتحة تسدها سداده من المعدن مربوطة بسلسلة تشبه تماما السدادات والسلاسل المستعملة فى الأحواض الحالية. وكانت فتحات الأحواض متصلة بشبكة من الأنابيب الجوفية قدر طولها بأربعمائة متر وتنتهى إلى الوادى، والأنابيب مصنوعة من صفائح النحاس المطروق مطوية على شكل أسطوانى مع مراعاة تراكب الأطراف ووضع الشفتين الى الأعلى.

والطب الفرعونى يمكن التمييز فيه، فى نظرتهم إلى المرض بين نوعين منه وهما: الأمراض الخارجية والأمراض الداخلية وقد دام هذا التقسيم إلى عصرنا هذا إذ يسمى الفرنسيون الجراحة بالباتولوجيا الخارجية والأمراض الباطنية بالباتولوجيا الداخلية. ص ٤٤

أما الموت فلم ينظر إليه المصريون نظرة الإسرائيليين أى كعقاب على خطيئة ارتكبها آدم وتقضى بحرمانهم من الحياة الآخرة ولكنهم رأوا فى الموت ظاهرة تتبع الحياة ولا تختلف عنها من حيث الجوهر وإنما هى إحدى حلقاتها فى عالم آخر.

ومن أطرف الطريق لو جاز هذا التعبير، أنهم مع دقتهم العلمية

كما يقول الدكتور بول غليونجى يصفون الأمراض وصفا شاعريا يقول:

بالرغم من تفوقهم فى الجراحة وعلم الكسور والرمد فقد وصفوا حوالى ٢٥٠ مرضا باطنيا وصفا دقيقا لا يخلو من الشاعرية فى التعبير، مثل تشبيههم الرجل المصاب بالضعف الشديد بالنسمة العابرة، والدمل بالفاكهة الذابلة.

أما البدانة فكان ينظر اليها بشيء من الازدراء ومن الطريف.. ومن الطعامه أن «نيفر سثم بتاح» رسم بدينا على جدار في مقبرة سقاره، ونحيفا يافعا مع زوجته على جدار آخر كأن وجود السيدة أوجب الاهتمام بمظهره.. إنه لا يكذب ولكنه يتجمل.

وكذلك «عنخ ماهور» فقد رسمه الفنان نحيفا على واجهة المقبرة وبدينا في ظلام الجدار الداخلي.

أعرف مصرية، أن أسماءهم أوصاف فعميد الآطباء «ايمحتب» معناه: الذى أتى سالما.

ونفرتيتى معناها: الجميلة تتخطر.

ونفرتارى معناها «جميلة الجميلات» كما نقول فى الريف اليوم أقصد كما نسمى «أحلاهم».

و «حتب حرس» معناه وجهها راض سعيد.

ولكن إذا بلغت حضارة المتحضرين جمال الأسماء فى رقة ونعومة وترف خصب الوادى ونعيم النيل.. إذا كان هذا طبع مصر الحضارة فلا غرو ولكن أن يبلغ الحس من الرهافة تجميل المرض ووصفه فى رقة فهذا ما لا يعرفه بلد آخر فى الدنيا.

لم يعرّف بلد فى الدنيا الضعف الشديد بالنسمة العابرة. إنها مصر الرقيقة المرهفه ذوقا وحسا ونفسا واسما إنها مصر المتحضره أقصد أم الحضارة.. أم الدنيا.